الفصل الرابع

الشعراء الثلاثة

• هذا الفصل خاص بهؤلاء الشعراء الثلاثة الذين نبغوا في الشعر فقط، وكانت وفاتهم بهذا الترتيب الزمني..

إسماعيل صبري

- وددت يا حافظ لو أنها كانت هي القاضية.

- سلمت يا شيخ الشعراء، ولا ذقنا فيك مرارة الموت وآلام الفراق.

- لعلها أحلى من مرارة الوجود في هذه الحياة الكثيرة الأحزان.

وأراد حافظ إبراهيم، أن يخفِّف عن صديقه الكبير، فقال لصبري:

- لقد كانت تلك الغيبوبة التي أصابتك من صدمة القطار «بروفة»!

- كنت أود أن تكون حقيقة، فقد ذقت من بلاء الحياة، ما هون علي عناء الموت، وحبب إليَّ الراحة الكبرى:

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأر ... ض تنم آمنًا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأم ... التي خلفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بماح ... منك إلا ما تشتكي من عذاب
كل ميت باق، وإن خالف العنـ ... ـوان ما نص في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب، فإن ما ... ت فقد عاد سالمًا للتراب

فقال حافظ:

- لو لم يكن في مدح الموت إلا هذا البيت الأخير، لكفاني اقتناعًا برأيك، ولكنا يا إسماعيل باشا ما زلنا في ربيع العمر.. وما أرى هذه الصدمة التي أصابتك إلا أخف صدمات الحياة

قال إسماعيل صبري صدقت:

وجدت الحياة طريق المما ... ت، وكل إلى حتفه يسرب
ويعثر فيه الفتى بالشبا ... ب ويدلف بالعلة الأشيب
ويتعب بالزاد فيه الفقـ ... ـير وأهل الغنى بالغنى أتعب
ويشقى أخو الجهل في جهله ... ويحرج بالعالم المذهب
موارد مشروعة للحيا ... ة فأي مواردها الأعذب؟

***

وكان إسماعيل باشا صبري وقتئذ محافظًا للأسكندرية، وقد سافر إلى القاهرة سنة 1897، فاصطدم القطار في طريقه، فأصيب برضوض، وعرته هزة عصبية أفقدته الشعور نحو عشرين يومًا، فلما أفاق لقيه شاعر النيل حافظ إبراهيم فهنأه، فتمنى هو لو كان قد لقى في هذه الغيبوبة أجله، وقال:

مقابر من ماتوا مواطن راحة فلا تك أثر الهالكين جزوعًا
وإن تبك ميتًا ضمه القبر فادخر لميت على قيد الحياة دموعًا

***

وكان «صبري» قد سئم الحياة، واستخف بمتاعها، وهو بعد لم يطو مرحلة الشباب، فكان يكثر من ذم الدنيا وينعي الاطمئنان إليها، والابتهاج لصفوها، وما كان يضيق بالدنيا لمأرب أضاعه، أو فشل أصابه، فقد أدرك من مفاخرها ما يزيد في طمع الحريص، وظفر من مناصبها بما يغبط عليه، ونال من بسطة الرزق، ورغد العيش، وفخر الشهرة حظًا تخلفت وراءه حظوظ الكثيرين، ولكنه كان رقيق الطبع، مرهف النفس، تؤلمه ومضة البرق إذا بدت في غير أوانها، وتجرحه خطرة النسيم إذا مرت في غير موضعها، فكان يضيق بالدنيا، لأنه يضيق بأهلها، ويتبرم بالحياة، لأنه يتبرم بضعف الأحياء، ويؤثر الانطواء والعزلة، ويثور على المجتمع لأنه ثائر على الأخلاق الفاسدة:

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق في الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرت على الأجـ ـداث وردًا أن هن أبدين بشرا
وشفاه يقلن أهلاً ولو أد ين ما في الحشا لما قلن خيرًا

ثم يخاطب نجم «هالي» وكان قد ظهر في ذلك الحين وتشاءم منه الناس فيقول:

أنت نعم النذير يا نجم «هالي» زلزل السهل والرواسي ذعرًا
ظن قوم فيك الظنون وقالوا آية أرسلت إلى الأرض كبرى
إن يكن في يمينك الموت فاقذفـ ـه شواظًا على الخلائق طرًا
هل تلقيت من لدن خاذل البا غي وحامي الضعيف يا نجم سرًا
أمحيط بكل شيء ومرد كل حي وتارك السهل وعرًا
أغدا تستوي الأنوف فلا ينـ ـظر قوم قومًا على الأرض شزرًا
أغدًا كلنا تراب ولا ملـ ـك خلاف التراب برًا وبحرًا
أغدًا يصبح الصراع عناقًا في الهيولي، ويصبح العبد حرًا

إن يكن كل ما يقولون فاصدع بالذي قد أمرت حييت عشرًا

هذا ما كان لأجله يضيق بالدنيا، ويستجير بالموت، وكان على رقته صارمًا في الحق.

حدثني المغفور له داود بركات إنه لما كان في ذلك الوقت محافظًا للأسكندرية استقدم الخديو عباس حلمي الثاني «ثورًا» من سويسرا ابتاعه بمبلغ كبير من المال، وكان الحجر مقررًا على الحيوان القادم من الخارج في عرض البحر حتى يثق الأطباء بخلوه من الأمراض، فحجر إسماعيل باشا على «الثور»، ولم يأذن بانتقاله إلى البر، فأرسل إليه الخديو ليسمح بنقل «الثور» بحرًا إلى قصر المنتزه حيث يقضي أيام الحجر المقررة، فرفض ذلك، وقضى «الثور» أيام الحجر في الميناء كسائر الحيوان فغضب الخديو، وبعث أحد رجاله يلومه لمخالفته سموه فكان جوابه:

- أنا لا أخالف إرادة سمو الخديو بهذا الرفض، لأنه هو الذي أصدر أمره بالحجر على الحيوان القادم من الخارج، ولسموه أن يصدر أمرًا آخر بفك الحجر وأنا أطيعه.

لكن هذا الجواب لم يكن ليقوم اعتذارًا عن هذه المخالفة، وما لبث إسماعيل صبري باشا أن نقل وكيلًا لنظارة الحقانية (وزارة العدل) وعلى الرغم من صلابته في الحق، وتشاؤمه في الحياة، وتحديقه كثيرًا إلى الموت، كان حلو الدعابة، لطيف المزاح..

حدثني المرحوم أحمد زكي باشا قال:

«كان المرحوم الشيخ سليمان العبد ينظم في كل مناسبة قومية، وفي كل عيد إسلامي تاريخًا ينشده أمام الخديو حين يقابل رجال الدين، فجاءني إسماعيل صبري باشا يومًا في مناسبة من هذه المناسبات، وقد كتب تاريخًا من نظمه وقعه بإمضاء الشيخ سليمان، وطلب مني أن أنشره في إحدى الجرائد الكبرى، فنشرته صحيفة «الجريدة» التي كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد، وبعد أيام قابلنا الشيخ سليمان العبد في الطريق، فهنأه إسماعيل باشا بجودة «تاريخه» الذي نشر في «الجريدة»، وأثنى على نظمه، فتقبل الشيخ التهنئة شاكرًا! فغادرناه ونحن لا نكاد نخفي ما عرانا من الضحك.

«وكنت مسافرًا معه من القاهرة إلى الإسكندرية، فخطر له ونحن في القطار

أن ينظم قصيدة يشكو فيها «شركة كوك» إلى «القنصل» على أسلوب الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف في ذلك الحين، والمشهور بميله إلى استعمال الوحشي من الألفاظ، والإكثار من الجناس في نظمه ونثره، فجعل إسماعيل باشا ينظم، وأنا أكتب حتى أتمها، وكان مطلعها:

يا أيذا «القنصل» المزجي زواجره ... صوب السفين وثوب السوس سربله

أشكوك كوكك كي ينكب عن نكب ... إذ كان كلا، وكل مل كلكله

أباتني والجرشي[1] حشوها ضجر ... أن مس جنبي خشب الفلك قلقله

وبعدما أتمها وقفنا في صالون القطار، ننشدها ونترنح كما يفعل أهل الأذكار، وبينما نحن في نشوة «الجلالة» وقد أحاطنا شبح الشيخ حمزة بهالته، إذ بالقطار يقف على محطة العاصمة، وإذ بالخادم يفتح الباب، فيجد «الجذبة» قد طارت بالألباب، فيتقهقر مذعورًا، ويغلق الباب بقوة، فننتبه من الهيام، ونغرق في الضحك»!

وضحك زكي باشا ضحكة عالية وهو يحدثني عن هذه الواقعة بدار العروبة بالجيزة حتى سقط منه كتاب كان بيده، ثم قال:

«وفي اليوم التالي كتب إسماعيل باشا القصيدة مقلدًا خط الشيخ حمزة فتح الله، وبعث بها إلى جريدة (المقطم) فنشرتها بإمضاء الشيخ، فلما صدرت واطلع عليها الشيخ حمزة عجب، وقال لأصدقائه:

- هذا الكلام كلامي، ولكني ما قلته..!

وذهب إلى إدارة «المقطم»، وقابل رئيس التحرير، وأخبره بذلك، فأخرج له الورقة المكتوبة فيها القصيدة فقال:

- وهذا الخط خطي، ولكني ما كتبته!

واضطر رئيس تحرير «المقطم» أن ينفي في اليوم التالي نسبة القصيدة إليه..

***

وكان إسماعيل صبري لا يسبيه من الحياة إلا جمال المرأة، وكان يروح عن نفسه متاعب الدنيا بالتغزل فيها. وكانت قصيدته «تمثال الجمال» أحسن ما قيل في الغزل

(1) الجرش: بكسر الجيم والراء وتشديد الشين المفتوحة هي النفس.

الذي يتمشى مع آداب العصر، وقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية، وكانت الحياة عنده بدون التأمل في المرأة لا تساوي شيئًا، بل لو مرت برهة من العمر لا يشعر فيها بالحب، فإنها تستوجب منه الاستغفار:

أبثك ما بي فإن ترحمي ... رحمت أخا لوعة مات حبًا
وأشكو النوى ما أمر النوى ... على هائم إن دعا الشوق لبا
وأخشى عليك هبوب النسيم ... وإن هو من جانب الروض هبا
وأستغفر الله من برهة ... من العمر لم تلقني فيك صبا

وكان يعجب بالأديبة النابغة «مي» ويتردد على صالونها في أواخر حياته. وكان يحرص على شهود مجلسها يوم الثلاثاء، وسافر يومًا إلى مدينة الزقازيق، واضطر للتأخر لبعض حاجته، فبعث إليها يوم الإثنين بهذين البيتين:

روحي على بعض دور الحي حائمة ... كظامئ الطير تواقًا إلى الماء
إن لم أمتع «بمي» ناظري غدًا ... أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وبعث إليها يهنئها في أحد الأعياد بغرة العام الجديد، فقال:

يا غرة العام جوزي الأفق صاعدة ... إلى السماء بآمال المحبينا
إني سألت لك الأيام صافية ... يا «مي» قولي معي بالله آمينًا

***

وأصيب في أواخر حياته بمرض القلب، فكان ينتابه كثيرًا، ويمنعه من القراءة والتفكير، وتشتد به الآلام فيشتهي ضجعة القبر، ويستغيث بالموت، ويستعجله، ويلومه لتوانيه، ويقول:

يا موت هأنذا فخذ ... ما أبقت الأيام مني
بيني وبينك خطوة ... إن تخطها فرجت عني

وغلب عليه التصوف في شعره حين دنا أجله، وأحس قرب نهايته، فكانت أبياته تشف عن الإيمان العميق والطمع في عفو الله، والتخلص من أدران الدنيا، والانصراف إلى الحياة الأخرى.

يـا رب أيــن تـرى تـقـام جهنم لـلـظـالـمـيـن غــدًا ولـلأشــرار
لم يبق عفوك في السموات العلي والأرض شـبـرًا خـالـيًـا للنار
يا رب أهلني لفضلك واكفني شطط العقول وفتنة الأفـكـار
ومر الوجود يشف عنك لكي أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يـا عالم الأســرار حسبي محنة علــــمي بأنك عالم الأســرار

واستمر شيخ شعراء العصر يعاني داء القلب حتى أذاب نفسه، فعادت لا تهفو لشيء، ولا تنشط لقول الشعر إلا ما كان خاصًا بالموت، فأكثر - وهو المقل - في النظم فيه.

وكان شهر مارس سنة 1923 وقد بلغ التاسعة والستين، فأصيب بذبحة صدرية ثقلت عليه، وعانى فيها آلامًا مبرحة، وساعدت الشيخوخة وداء القلب هذه العلة القاسية، فنالت من جسم الشيخ الضعيف، واستبدت بصدره، وتحكمت في أمره، وتوانى الموت في إقدامه، فضاعف هذا التواني من آلامه، ومكث أيامًا معلق النفس، معذب الجسم. وزاره حافظ إبراهيم، فقال له: «ألم أقل لك منذ ست وعشرين سنة بعد صدمة القطار: «وددت يا حافظ لو أنها كانت هي القاضية..» «فقلت لي: «سلمت..».. فأين مني السلامة اليوم، وقد حملت عناء الحياة الطويل، وعناء الداء الوبيل، وأنا أقضي الآن على فراشي كما يقضي الذبيح».

ثم سكت، وانتابته سكرات الموت فذهب في 21 مارس مبكيًا من دولة الفضل والأدب.

obeikan.com

محمد حافظ إبراهيم

دخلنا عليه مسكنه بالجيزة.. أنا وبعض المريدين قبل أن ينزل به الحمام بقليل من الزمان، فألفيناه في جلباب أبيض وعباءة بنية، وقد أمسك مدلكًا طبيًا في يده، فقلنا:

- ما هذا يا شاعر النيل؟

قال:

- مدلك للأمعاء، كلما ألمت بها آلام فزعت إليه، واستجرت بعجلتيه، فأديرهما على معدتي وأمعائي من الشمال إلى اليمين، وقد أديرهما على ساقي من أسفل إلى أعلى، ففيهما فائدة زعمها لي الطبيب، وصدقتها التجربة.

قلنا: قد يغنيك عن هذه الأداة حمية وصيام عن الشراب والطعام، فما نحسب تعب أمعائك، إلا من كثرة غذائك!

فقال: ما هذا يا أولاد؟.. كنا ننقم من الدهر شقاءه، فجئتم تنقمون منا هناءه، لقد جعنا في شبابنا، فلنأكل في شيخوختنا، وليس من الموت بد، سواء أصمنا أم أكلنا، فخير لنا أن نموت شباعًا من أن نموت جياعًا.

- وهل يغني الشبع إذا دنت ساعة الموت، وحلَّ الأجل؟

- لا، كما لا يغني الجوع!

- لكن في الجوع ما يكسب الجسم صحة، ويطيل الحياة.

- لا أظن، ولست أطمع أن تطول حياتي، ووددت لو لقيت الموت عما قريب، وإني لأعجب من دلفه في بطء وكأنما أدركته الشيخوخة على توالي الأجيال، فما يستطيع أن يسرع الخطى ليشفي نفسًا سئمت العيش، ومرضت من الحياة والأحياء:

عجبت لعمري كيف مد فطالا ... وما أثرت فيه الهموم زوالا

وللموت ما لي قد أراه مباعدًا ... وجل مرادي أن أوسد حالًا

- إذن فدعك من المدلك، وليكن ما يكون!

- يا خبثاء.. آلام في النفس، وآلام في الجسم. والله ما حرصت على البقاء بقدر حرصي على الصحة، وما طمعت في السلامة إلا فرارًا من بلاء الداء، وقد يفر من النار المنتحر بلهيبها، ويتشبث بالنجاة الدافع بنفسه إلى الغرق.

- ولماذا تتألم نفسك الآن، وقد بسط الله لك الرزق، فصرت من كبار الموظفين وعداد المحظوظين؟!

- ما تألمت لبؤسي في الحياة فقط، بل لبؤس مصر، وضعف أخلاقها، واضطراب أحوالها، فلا والله ما تقوم لهذه الأمة قائمة إلا إذا أتيحت لها تربية خلقية، وعندي أن تغلق المدارس خمس سنوات يتعلم فيها الشباب الأخلاق، أو أن تغير وزارة المعارف برنامجها العلمي ببرنامج خلقي تستفيد منه الأمة، ويخلق لنا رجالًا، فنحن لسنا في حاجة إلى العلم بقدر حاجتنا إلى الأخلاق:

يقولون في النشء خير لنا ... وللنشء شر من الأجنبي

أفي الأزبكية مثوى البنين، وبين المساجد مثوى الأب

أمور تمر وعيش يمر ... ونحن من اللهو في ملعب

وشعب يفر من الصالحا ... ت فرار السليم من الأجرب

- لكنك تظلم أمة رزحت في الاحتلال طويلًا، وناءت بأوزاره، فأفسد أمرها، وأضعف أخلاقها.

- هذا حق، فقد أنساها الأجنبي ماضيها المجيد، وميراثها التليد، بل أنساها كل شيء حتى الكرامة والرجولة.

لحى الله عهد القاسطين الذي به تـهـدم مـن بنياننا مـا تهدما

سـلام على الدنيا سـلام مـودع رأى في ظلام القبر أنسًا ومغنمًا

- أراك تكثر من ذكر الموت حتى فاضت به أشعارك، وكلما اعتراك ضيق فزعت إليه، وأشدت بالثناء عليه، أفترى فيه علاجًا لنفسك، وتفريجًا لهمك، أما أنه فرار من الميدان؟

- كلا، بل رأيت الموت للحر أعصم، ونجاة الكريم من لؤم الحياة أكرم، وما أنا بهارب من الميدان، ولكن حال مصر يستوي فيها الشجاع والجبان..

فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب

كأنني عند ذكـري مـا ألـم بها قـرم[1] تردد بين الموت والهرب

لقد ضاعت الحقيقة فيما بيننا، واستوى الحسن والمسيء، وهضم العالم العامل، وأكرم المفسد الجاهل، وشابت الفضيلة، وأهلكت الحزبية المودة، وفتكت بسداد الرأي، وعصفت بالكرامة، وأصبحت الوطنية عندنا تجارة مأربها الربح الشخصي، وغايتها النيابة أو كرسي الوزارة. وما أنا وحياة تخاذلت فيها الهمم وفسدت فيها الذمم.

***

وكان حافظ إبراهيم رقيق الطبع دقيق الحس، يتألم لكل شيء يبعث الألم حتى لو كان مصدر الألم نفسه، وقد أصيب في أواخر حياته بشهوة البطن، وهي شهوة تنوء المعدة فيها بأحمالها كلما جاء الطعام، حتى أضعفت أمعاءه البطنة، واشتدت بها الآلام، فاضطر إلى عمل جراحي بها يدعى «عملية أفرنوف». وقد نصحه الطبيب باستعمال المدلك كلما شعر بالألم أو أحس وقوف الهضم.

(1) القرم: بفتح القاف السيد العظيم، والبطل الشجاع.

وكنا نتردد على مسكنه في زمرة من الأدباء، وغاب عنه ذات مرة زائروه، وانقطعوا مدة عن زيارته، فلما قابلناه ارتجل هذه الأبيات:

أنا في الجيزة ثاو ... ليس لي فيها أنيس
أنكر الأنس مكاني ... ونأى عني الجليس
ليس يدري من رآني ... أطليق أم حبيس؟

فرد عليه الأستاذ محمد الهراوي بأبيات منها:

أنت في الجيزة خاف ... مثلما تخفي الشموس
قابع في ركن بيت ... قد أظلته الغروس

وقابله ذات مرة المرحوم مصطفى صادق الرافعي وكان قد أزمع السفر إلى بلاد اليونان. فقال له الرافعي:

- ألا تخشى أن تموت هناك، فتموت يونانيًا؟!

فقال حافظ:

- أو تراني لم أمت في مصر، إن الذي بقي هين!

وانتقل حافظ من الجيزة إلى مسكن آخر بضاحية الزيتون بعد احالته إلى المعاش بقليل. وفي ذاك الحين كتب له صديقه الأستاذ خليل مطران هذه الأبيات:

حبست على الوظيفة منك نورًا ... تفقده الحمى والليل غاش
وقيدت القريض على افتقار ... من الوطن العثور إلى انتعاش
فما صدقوا وغيرك قد عنوه ... بقولهم أحيل إلى المعاش

***

وفي هذه الفترة التي فصلت بين نهايته في الوظيفة، ونهايته في الحياة نشر قطعًا من الشعر السياسي أعادت سابق عهده في هذا المجال، وكان منها في حياد الإنجليز:

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم ... فمصابنا ومصابكم سيان
حاربتم أخلاقكم لتحاربوا ... أخلاقنا فتألم الشعبان

ومرَّ حافظ على مسكنه الأول بالجيزة قبل وفاته بخمسة أشهر فاهتزت في نفسه الذكريات، وأخذ يودع الحياة، ويقول:

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حـرًا ففي الأسـر ذل كنت تأباه
فقلت يـا ليته دامـت صرامته مـا كـان أرفـقـه عـنـدي وأحـنـاه
أسرى الشبيبة أحياء وإن جهدوا أما المشيب ففي الأموات أسراه

كان هذا الوداع في 26 فبراير سنة 1932، وكان في ذلك الحين أحسن صحة، وأبهج نفسًا، وقد خلع عنه حياة الوظيفة في دار الكتب بعد عشرين عامًا، وإن لم يكن طول هذه المدة مكلفًا بعمل كما يكلف الموظفون، وقضى حافظ المدة الباقية من حياته بين أصدقائه لم ينقطع عنهم يومًا، ولم يعتكف لداء، بل بقي معهم مرحًا طروبًا كعادته إلى ما قبل موته بقليل، وكان إذا ذكر الضعف والشيخوخة وما يليهما من موت قال إنه يعتقد أن موته سيأتيه من أمعائه، لأنها أضعف ما فيه، وهي لا يصلحها دواء ولا صيام.

واستمر حافظ لا يبالي بالموت، أو قل استمر يمدحه ويناجيه، حتى كانت ليلة العشرين من شهر يولية سنة 1932 فسكن مرضه المعوي، وحدث جلساءه في تلك الليلة بما يشعر به من صحة جيدة، لم يعهدها منذ سنوات.

لكن لم يدر حافظ أن ما شعر به من صحة جددت في نفسه الأمل، كان خدعة القضاء، وصحوة الفناء، وكأن الجسم إذا شعر بالموت مقبلًا عليه اهتزت خلاياه، واستجمعت ما فيها من قوة لتكافح الكارثة، فيشعر المريض بانتعاش نفسه، ونشاط صحته، ثم لا يلبث حتى تخمد جذوته، وتخبو حركته، كالمصباح إذا شارف النهاية توهَّج واشتد لمعانه حتى يكاد يبهر العيون، ثم يتخاذل ويحترق.

كذلك كان حافظ.. فقد كان في الليلة السابقة لليلة وفاته بصحة جيدة، ذكر بها عهد الشباب، وريعان فتوته، ونضارة بهجته، فجلس بين أصدقائه مسرورًا، ثم آب إلى بيته متفائلًا في نحو منتصف الليل.

اطمأن حافظ في مخدعه، وظن أن الحياة قد امتدت له سنوات أخرى، وأن شبابه

الذي ضاع في شجو وأنين، وخيبة وأشجان، عاد إليه ليستأنف حظه في رغد من العيش بعد بؤس، وابتسام من الأيام بعد عبوس.

أو أن الشيخوخة أرادت أن تديل له من الشباب، وتعوض له ما ضاع عليه من متاع، وأن تأتي بالمعجزة في حياة شاعر أهرمته الهموم قبل أن يوافيه الهرم، وقوضته الأشجان قبل أن تقوضه الشيخوخة، وعاش طول حياته كئيبًا مكلومًا.

نعم، أو أن الحظ الذي طالما بكاه وناجاه، قد أسعفه في تلك الليلة وواتاه، أو أنه طوى من الأيام ما عاد به القهقري فاستأنف عهد «الإمام»، وما كان يعيش فيه من سعادة روحية، وعطف جميل، وحظ جزيل، أو أن لحظات من الجنة أعارته بهجتها في أواخر لحظاته، فانتعشت روحه، وذهب عن جسمه الألم.

نام حافظ، ولم تنم عنه عين الموت، ولم تطل به راحة الكرى، حتى أسرع إليه الخطى، ووقف شبحه على سريره يناجيه:

ها أنذا يا حافظ، دعوتني مرارًا فلم أجبك، وناجيتني أيامًا فلم أسمع إليك، وأقبلت مستنجدًا فأعرضت عنك، وشكوت مرارة الحياة فقسوت عليك، وفزعت من ظلام الخطوب ففررت منك، ومدحتني بما لا تمدح به الغيد الحسان، وأرباب العروش والتيجان، فما عطفت نحوك، ولا سمحت بلقائك، لكنك وقد بلغت النهاية، واستوفيت من الحياة ما شاء القدر، فقد جئت مستجيبًا لندائك، مسرعًا بعد بطء إلى شفائك، باعثًا بك إلى برد الثرى الذي تمنيته فقلت:

حن جنباي إلى برد الثرى ... حيث أنسى من عدو وحبيب

مضجع لا يشتكي صاحبه ... شدة الدهر ولا شد الخطوب

***

وكانت ليلة الحادي والعشرين من يوليو سنة 1932 وهي ليلة الوفاة فشعر بألم شديد يدب إليه لم يسبق أن شعر به، ثم أغفى قليلًا ولكنه ما لبث أن استيقظ على ألم هائل انتابه في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فمنعه من التأوه، ولم يستطع أن يفوه إلا بهذه العبارة:

- عاوز طبيب.. ادعو لي صديقي عبد الحميد البنان يجيب لي طبيب حالًا.

وكان السيد عبد الحميد البنان نائمًا في تلك الساعة، فاستيقظ على دق التليفون دقًا مزعجًا فهب من فراشه وسأل: «من المنادي؟» فإذا به داعية من بيت حافظ تبلغه نبأ مرضه المفاجئ، وترجوه أن يحضر توًا مع أحد الأطباء، فأسرع السيد عبد الحميد إلى ضاحية الزيتون ومعه الطبيب، ودخلا على شاعر النيل، فوجداه صريع «الحمى الشوكية» فناداياه فلم يجب، والتفت إليهما ودمعت عيناه، ثم تحركت شفتاه في غير صوت بالتأوه والاستغاثة، ولم يستطع حركة ولا كلامًا.

ثم ودع الحياة في سلام، غير آسف على الدنيا وما تحويه من خطوب وأشجان وآلام.

obeikan.com

أحمد شوقي

لما قال أمير الشعراء أحمد شوقي في رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة قدر، وكل منية بقضاء

قلنا: لقد نعى أمير الشعراء نفسه، وآذنت شمس حياته بالمغيب، وما نحسب أنه مقيم بيننا طويلًا، وقد لا ينتهي العام، حتى نفتقده بين الصفائح والرجام.

وكنا وقتئذ في آخر يولية سنة 1932 ولم يجف دمعنا على شاعر النيل، ثم مضت بعد وفاته ثلاثة وثمانون يومًا، وفي صبيحة اليوم الرابع والثمانين - وهو 14 أكتوبر - طوى مصر وسائر الأقطار العربية نبأ فزعت فيه دولة الأدب بآمالها إلى الكذب، لأنه كان نبأ مفاجئًا، ولأنها كانت تتمنى لشوقي حياة طويلة، ولها من نبوغه ثروة جديدة.

وقبل أن يموت بأيام عاد في المساء إلى داره «كرمة ابن هانئ»، فلما دخلها وقف بالحديقة وقال لسكرتيره:

- ترى.. كم قبرًا تسع هذه الدار؟.

فدهش السكرتير، وقال له:

- ولماذا هذا السؤال يا باشا؟[1]

فقال: «لا شيء، لكنه خاطر مر بنفسي، فذكرت الموت، وطالما خالجتني ذكراه في هذه الأيام، فهب أنني مت فماذا يكون؟».

- عشت يا أمير الشعراء، ولا روعت فيك مصر، ولا فجع بك الشرق العربي.

- لا تخف فليس الموت بالمصيبة العظمى، وقد يكون منجاة من حسد حاسد أو حقد حاقد، والقبر أبقى من هذه الدار، وهو لا يشغل غير عشرة أمتار، أما هي فقد شغلت خمسة آلاف متر، فلو بنيت في مكانها قبور لاتسعت لخمسمائة قبر، أليس كذلك؟

فأسقط في يد السكرتير، وعاد شوقي فاستأنف كلامه، فقال:

- أي أن كرمة ابن هانئ تشغل من الأرض ما يكفي ثلاثة آلاف من «الموتى» فما أعظم طمعنا في دار الفناء، وقناعتنا في دار البقاء.

- أراك اليوم تذكر الموت، وقد نهيتنا عن ذكره في مجالسك، وتمنيت لنا منه النجاة؟

- نعم، ولكني ما خفته يومًا، وما ذممته قط ولا لذت منه بالفرار، ولا نقمت لأجله على الأقدار:

أنا من لا يرى الفرار من المو ت، ومن لا يرى من الموت بدًا

إنما الموت منتهى كل حي لم يصب مالك من الملك خلدًا

سنة الله في العباد، وأمر ناطق عن بقائه، لن يردا

«ولماذا الفرار من راحة بعد عناء، ونعيم بعد شقاء، فإن «الحياة كعهدك بها معصية، عن الحظيرة مقصية[2]، وخلوة حلوة عواقبها نغص، ومشاربها غصص، أفعى

(1) كان شوقي يدعى بين عارفيه بهذا اللقب لأنه كان يحمل رتبة الامتياز من الدولة العثمانية.

(2) هذه الفقرات من أسواق الذهب لشوقي.

خداعة، ولذة لذاعة، شوك بغَض الورد، وقذى نغَص الورد[1]، أمور شتى الأعنَّة، وحوادث وقَع وأجنَّة، فقل لمن أطال التفكير، وبالغ في التنكير، وكد باله، ومد بلباله، واحترق احتراق الذبالة:

خـــل اهــتـمــامـك نـاحـيـه   وخـــذ الــحــيــاة كـمـا هـيـه

«ولنعد إلى كرمة ابن هانئ، أليست واسعة الجوانب، ثم أليست تتسع لخمسمائة قبر، في كل قبر ستة أموات، فتكفي إذن ثلاثة آلاف ميت، فبئس حرص الإنسان وبئست نفسه المدمنة على الشهوات:

والنفس عاكفة على شهواتها   تـــأوي إلـــى أحـقـادهـا وتـثـور

والـعـيـش آمــال تجد وتنقضي   والـمـوت أصدق والحياة غرور

«نعيش ونمضي في عذاب كلذة، وفي لذة كعذاب. ونذهب من الأحلام في كل مذهب، ثم تنتهي هذه الأحلام إلى ذهاب، ونبني من التراب قصورًا ونحن لعمر الحق تراب، والفلك دائر ما لعصاه مستقر. ودولابه بالعالم سائر، وعلى جانبيه المرتقى والمنحدر. نقض إيوان كسرى من أساسه، وأتى الأهرام من أم راسه، ودهى صرح الحمراء، فقوض منه أعظم البناء، ولم تبق له الخطوب إلا عمدًا قائمًا، كأنما هي على عباب الأيام عائمة.

«أين رومية وقيصرها، وجنة[2] الطلح ومعتمدها، وأين نابليون وصولته، وصقر قريش ومنيته[3] لقد صار القصر له قبرًا، ثم ذهب القبر وصاحبه، وأصبح ذكرًا في الأفواه، وخاطرًا في النفوس، أو سطرًا في الطروس.. ثم ماذا، أنسيت السؤال:

- كم قبرًا تسع هذه الدار؟

- ....

- أليست كرمة ابن هانئ تسع خمسمائة قبر، وأليست هذه القبور تتسع لثلاثة

(1) الورد بكسر الواو الإشراف على الماء للاستسقاء.

(2) جنة الطلح هي وادي الطلح، كانت متنزهًا بإشبيلية للمعتمد بن عباد.

(3) المنية بضم الميم وسكون النون، قصر عبد الرحمن الداخل بمدينة قرطبة، وقد دفن به.

آلاف من الموتى، ثم ألسنا مسرفين جدًا، لقد شغلنا من الأرض كبيرًا، وعطلنا من منافع الناس كثيرًا. فبعدًا لطمع الإنسان يطلب الجاه، ويستزيد من المال، ويستعمر من الأرض آلافًا، ويكلف نفسه المتاعب أضعافًا، ويبني حول حجرته حجرات، وفوق طبقته طبقات، ويرجو أن ينطح بها عنان السموات، وما دري أن الحياة دقائق ولحظات، فما أضله وأعجب عقله، لقد شغل بنفسه عن رمسه، ونسى أنه زائل ولو طال به المدى، وإنه واصل ولو أبطأت به المطية:

كل حي وإن تراخت منايا ... ه، قضاء عن الحياة انقطاعه

والذي تحرص النفوس عليه ... عالم باطل قليل متاعه

«إني لأشعر بتعب في هذه الأيام، وقد استهلك جسمي الضعف، وعصرتني الشيخوخة، فما أبقت مني غير مخ في عظام، وروح في جسم رمام[4]، وما أحسب أني مقيم طويلًا، فيا ترى على أية الحالين يأتيني الأجل، أبعد الرقاد أيامًا أما في غفلة من النفس، وسنة من الحس:

وأي المصرعين أشد، موت ... على علم، أم الموت الفوات[5]

وهل تقع النفوس على أمان ... كما وقعت على الحرم القطاة

***

وكان أمير الشعراء قد اشتد ضعفه في السنوات الأخيرة، وبدا أكبر من سنه، ودفعته شدة ضعفه إلى زيادة عطفه على الفقراء ومواساة البؤساء، وكان يقول: «حسبي أن أسمع من إنسان أنه مريض، أو ضعيف أو بائس، فيعروني ألم عميق، ووجد شديد، هل ترونني أزور الآن العظماء أو ذوي الجاه، لا، إنني ضعيف وأحب الضعفاء».

ثم أنشد قوله عن نفسه:

أقول لهم في ساعة الدفن خففوا ... عليّ ولا تلقوا الصخور على قبري

ألم يكف هم في الحياة حملته ... فأحمل بعد الموت صخرًا على صخر

(4) رمام بكسر الراء أي بال.

(5) الموت الفوات الذي يأتي فجأة.

وركب سيارته من داره قبل وفاته بقليل مع سكرتيره، فذكرا في الطريق الأزمة الاقتصادية الناشبة في العالم في ذاك الحين، فتحدث عن وجوب الاقتصاد في تلك الأيام، ثم وصل إلى مكتبه، فتقدم إليه بعض ذوي الحاجة، فنفحهم خمسة جنيهات، ثم قال لسكرتيره:

- كنا نقول من دقائق أنه يجب الاقتصاد في هذه الأيام، فهيا بنا ننصرف قبل أن يدركنا آخرون.

وبينما هو يهم بركوب سيارته إذ أقبل عليه بائس، فقال له: «ليس معي شيء» وأمر السائق بالسير. وما كادت السيارة تبتعد قليلًا عن المكتب حتى أمر السائق بالرجوع. وقال لسكرتيره:

- ابحث عن الرجل الذي صرفته، فلعله يكون في حاجة أشد من الذين تقدموه..

فبحث عنه حتى وجده فعاد به، فقال له شوقي:

- لا تؤاخذني، فأنا مريض وأعصابي ضعيفة، فلا تتكدر من حدَّتي ونفحه مبلغًا من المال.

وكان شوقي قد أصيب بمرض تصلب الشرايين في أواخر حياته، وكانت أعصابه طول حياته ضعيفة، وقد زادت ضعفًا بهذا المرض، وبما كان يبذله من مجهود أدبي في شيخوخته، فأصبحت تتأثر بأقل مؤثر، حتى تكاد تتأثر بخطرات النسيم، أو بلمس الحرير، وكان إذا دخل عليه إنسان ممن يعرفهم ومن لا يعرفهم اختلجت أعصابه، فيسلم عليه في حركة عصبية ترتعش لها يده، ويمكث نحو دقيقتين في هذه الرعشة فلا يطمئن الزائر إلى حديثه إلا بعد برهة، أو بعد أن يشرب القهوة.

وقد نصحه طبيبه كثيرًا بالكف عن العمل والإنتاج، والانقطاع إلى الراحة من عناء الفن، ولكن العمل الأدبي كان له طبيعة، والإنتاج الشعري كان له ديدنًا، فكان من المحال أن يحقق رجاء الطبيب.

واستمر يسهر الليل كله، ويعاني قرض الشعر، وتأليف الروايات، حتى أشرف على الموت، بعدما مهد لها بهذا الضعف الجسمي، والمجهود النفسي الذي كابده أربعين عامًا، فخلف للأدب العربي ثروة ضخمة، وبنى لنفسه مجدًا خالدًا.

***

وكانت أوائل أكتوبر سنة 1932، فاعتزمت «جمعية القرش» إقامة احتفال في يوم 14 من هذا الشهر لافتتاح مصنع الطرابيش، ورغبت إليه أن يتوج هذه الحفلة بقصيدة من قصائده، فنظم لها هذه القصيدة:

الملك بالمال والرجال ... لم يبن ملك بغير مال

والمال ركن الشعوب يؤوي ... إليه في السلم والقتال

ثم قال:

الحمد لله قام منا ... أواخر تمموا أوالي

وسد جيل مكان جيل ... لله من سابق وتال

وما درى أحد أن أمير الشعراء سيغادر عالم الشقاء في اليوم الذي تلقى فيه آخر قصيدة له وهو على فراش الموت.

ففي اليوم السابق لهذا اليوم أحس شوقي بتحسن في صحته، فطابت نفسه لصباح ذلك اليوم الهنيء الذي ذاق فيه من متاع العافية والصحة ما لم يذقه منذ سنوات، وكان يستعيد بما خالجه من طروب وسرور وبهجة الماضي، وما طوى فيه من عيش ظليل، وعهد باسم الوجنات جميل.

وفي منتصف السابعة مساء ركب أمير الشعراء السيارة مع سكرتيره، وذهب للرياضة في مصر الجديدة.. وفي الطريق قال له:

- أراني اليوم منشرح النفس جدًا، فإني أشعر براحة تامة، واعتدال في بنيتي، وقد تناولت الطعام بشهية.

وفي عودته مر بأحد المطاعم، فتناول فيه العشاء ثم توجه إلى دار جريدة «الجهاد» فدخل حجرة السكرتير، وعلم صاحبها ورئيسها الأستاذ محمد توفيق دياب

بقدومه، فانتقل إليه، فقدم له شوقي بك سيجارة، ولاحظ الأستاذ دياب أنه يسعل سعالًا خفيفًا، فسأله عما به، فأجاب:

- ذلك برد بسيط، وهو عارض منتشر في هذه الأيام.

- لعله من اختلاف الفصول.

- أظن ذلك..

***

ومكث شوقي إلى الساعة الحادية عشرة في جريدة «الجهاد» ونهض قائلًا: «إني ذاهب إلى داري لأستريح، وألتمس شيئًا من الدفء».

وركب السيارة حتى وصل إلى كرمة ابن هانئ، وقبل أن يدخل غرفته وقف برهة في الحديقة، وقال لسكرتيره:

- هيه.. كم قبرًا تسع هذه الدار؟

- لماذا يا باشا نعود إلى هذا السؤال؟

- لا شيء.. لكنه خاطر مر بنفسي كما مر بها منذ أيام.

- إنه وهم باطل يمر كثيرًا بنفوس الناس!

- بل إن الموت حق.. ثم.. ألم أقل لك أن هذه الدار تسع خمسمائة قبر وأنها تتسع لثلاثة آلاف من الأموات.

- لقد ذكرت لي أنك بصحة جيدة، فلماذا هذا الوهم المخيف؟

- لا شيء.. لا شيء.. اذهب ونم.

وأوى أمير الشعراء إلى مضجعه، وأراد النوم، فاعتراه أرق وسعال، فتدثر حتى دفئ، لكنه لم يسكن إلى الدفء، ولم يطمئن إلى الفراش، وشعر بآلام في صدره، ثم ضيق في تنفسه فأيقظ الخادم وأمره أن يقوم بإسعاف خاص بالتصلب الشرياني، فلم يفده هذا الإسعاف، فأمره أن يستدعي الدكتور جلاد، وأن يوقظ أسرته.

وكان الموت يسرع إليه الخطى، وينشر أجنحته على سريره، ويناجي شاعرًا طالما

ناجي النجوم في أفلاكها، والطيور في أجوائها، والأزهار على أفنائها، وطوى القرون القهقري حتى أتى الرشيد في ناديه، والمأمون في مغانيه، وسيف الدولة في مجالس متنبيه، فسحر النفوس بعجائب سحره، وامتلك القلوب بعظمة شعره، وسبق الشعراء الأوائل بعظيم إنتاجه، وبزّهم بفيض نفسه، وباهر آثاره.

وعاد الخادم، فوجد سيده يجود بنفسه، فطمأنه إلى حضور الطبيب، فقال شوقي:

- لا أمل بعد الآن. إن أمري قد انتهى، فسلام على أولادي وأصدقائي.

وحضرت السيدة زوجته وأولاده، فرأوه في النزع الأخير، فارتاعوا وجاء الطبيب، فوجد الشاعر العظيم يجود بأنفاسه في الساعة الثانية بعد منتصف ليلة الجمعة 14 أكتوبر سنة 1932.

وقد أوصى أن يكتب على قبره من قصيدته نهج البردة هذين البيتين:

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

openkan.com